الهوية /الأمة /القومية

التراث والتاريخ:

هل وقع إدوارد سعيد قليلاً في مطبّ التمركز الثقافي الأميركي؟

-١-

رغم الإعجاب الكبير بفكر إدوارد سعيد، سواء في كتابه (الاستشراق) الذي قدم فيه مسحاً بانورامياً عميقاً ويقظاً لعملية إنتاج الغرب (لصورة الشرق) -بدءاً بالعرب والمسلمين ثم إكمالاً ببقية العالم غير الأوروبي- وفق مصالحه الاستعمارية، ثم فرض هذه الصورة على (الشرق) بمختلف الوسائل كي يفهم ذاته بها، ويعيد إنتاجها بنفسه.. أم في كتابه (الثقافة والإمبريالية) حيث يكمل ذلك المسح بقراءة نماذج من (الإبداع الغربي)- الروائي خصوصاً -مبيناً وظائفها في إطار تجربة الإمبراطورية الاستعمارية.. فإن المرء لا يمكنه إلا أن يتوقف متحيراً عند بعض الأطروحات التي يقدمها في (الثقافة والإمبريالية) حول مفهومات وقضايا مثل: الأمة- الهوية- التراث والتاريخ القوميين- القومية ورموزها، وصلة بقائها بعدم إنجاز فكفكة الاستعمار ومقاومة الإمبريالية.. خصوصاً أنه يبين حدة الوطأة في استمرار الفعل الإمبريالي المؤثر في الشعوب المستقلة في النصف الثاني من هذا القرن!.. وأنه يربط ظواهر كـ (الإرهاب) و(الأصولية)- وضمناً ما ينشب من نزاعات اثنية

وصراعات حدودية- بذلك (النظام العالمي الذي ينتج الثقافة، والاقتصاد، والقوة السياسية جنباً إلى جنب مع "مُعامِلاتها" العسكرية والسكانية ويفصح عنها جميعها، ليملك ميلاً ممأسِساً لإنتاج صور عبر قومية خارجة على المقياس تمارس الآن إعادة توجيه الإنشاء الاجتماعي والعملية الاجتماعية العالميين كليهما)!!

ورغم قبض إدوارد سعيد على جوهر تلك العمليات وغايتها الإمبريالية فهو يشدد إدانته (للأمة- والهوية – والقومية – والتراث- والتاريخ.. إلخ) لدى الشعوب المهيمن عليها بحجة أنها متوارثة مع الفكر الاستعماري الإمبريالي، أكثر مما يدين شذوذها لدى الإمبرياليين.. ويخلص من ذلك إلى حلم انتماء ثقافي وجغرافي إنسانوي- هو في حقيقته تطهر من كل انتماء – تحققه القوى الجديدة الواعدة من البشرية!.. وفي ذلك نزوع إلى التعالي "فوق الواقعي" لدى هذا المفكر الكبير الذي يكشف بلمسات ألمعية أعمق ما في حركة الواقع من فواعل ومكونات.. واحتمالات أيضاً. وإن ذلك ليظهر الرجل كأنما هو غريب- في تلك الإدانات وهذا التعالي حصراً- عن فكرهِ العام، بل حتى متناقض معه إجمالاً. وبالطبع، لذلك سبب يمكن كشفه، حيث يشير إدوارد سعيد إشارة ذات أهمية خاصة إلى قضية (الهوية) في الولايات المتحدة. وهذا ما سنعود إليه لاحقاً.

-٢-

يقول إدوارد سعيد في المقدمة التي كتبها للترجمة العربية لكتابه (الثقافة والإمبريالية) ما يأتي:

(إنه لذو أهمية خاصة بالنسبة لي، كعربي وغربي، (أن

ينجلي) أن فكرة التعددية الثقافية أو الهجنة – التي تشكل الأساس الحقيقي للهوية اليوم– لا تؤدي بالضرورة دائماً إلى السيطرة والعداوة، بل تؤدي إلى المشاركة، وتجاوز الحدود، وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة.. كذلك أطرح في هذا الكتاب أن فكفكة الاستعمار ومقاومة الإمبريالية تظلان إلى حد مأسوي غير منجزتين حين تصبح رموز الاستقلال القومي أهدافاً قائمة بذاتها. عن جماع التاريخ الحديث للعالم الذي كان خاضعاً فيما مضى للاستعمار – من شبه القارة الهندية، وأندونيسيا والوطن العربي، إلى معظم أفريقيا– هو التاريخ المؤسسي لهذا التقديس الضال للدولة –الأمة، بدكتاتورييها المتغطرسين، ومجتمعاتها المعسكرة المعادية للديمقراطية، وباستجنابيتها– أي خوف الأجانب وكرههم!– وبمشهدياتها الطبيعية التي يسودها القحط الثقافي. وعلاوة، فقد حاولت أن أظهر أنه ضمن المقاومة الوطنية للإمبريالية نفسها، في كل مكان تقريباً، كان ثمة تيار نقدي أبصر المخاطر (الأشراك) الكامنة في القومية).

ويقصد إدوارد سعيد بـ (التعددية الثقافية) هنا– أي الهجنة– أن أية ثقافة لم تعد إلا خليطاً من أصول ومكتسبات جديدة انضافت إليها بقوة (تجربة الإمبراطورية)، فهي إذاً مشاركة لبقية الثقافات العالمية بهذه (المكتسبات) وحدها.ومع اعتقادنا بعدم صوابية ذلك، نخمن أيضاً أن تلك (الهجنة) الثقافية ليست (الأساس الحقيقي للهوية اليوم) كما يؤكد. فالهوية لا بد من أن تفهم في سوية أخرى من النظر أو في منظور آخر. وتبدو إدانة القومية هنا واضحة. فإدوار سعيد يستند إلى فرانز فانون في مسألة وجوب (تحول الوعي القومي إلى وعي اجتماعي) في البلدان المستقلة التي عددها وكأنما الوعيان متناقضان، بل كأنما

إدوارد سعيد – وهو ينعي على مجتمعات هذه البلدان (المعسكرة) عداء الدولة/ الأمة فيها للديمقراطية –ينسى، أو يتناسى ما رأينا أنه يقرره بشأن النظام العالمي الإمبريالي وفعله، في المقبوس الأول، وقرن الدولة إلى الأمة يشكل إزاحة مفهومية خطرة، وخطورتها جلية.

ولكن لنحاول أن نستجلي التفصيلات من إدوار سعيد نفسه، كي لا نحمل فكرهُ العميق النفاذ ما قد نكون غير قادرين على أن نحيط به جيداً، أو نتمثله كما يجب. يقول سعيد كأنما هو يشرح ما سبق أن أخذناه من المقدمة:

(مبدأ الهوية، وهو مبدأ سكوني أساساً، يشكل لباب الفكر الثقافي خلال العهد الإمبريالي. إن الفكرة الوحيدة التي لم يمسها التغير إطلاقاً، عبر التبادلات التي بدأت بانتظام قبل نصف ألف من الزمن بين الأوروبيين "وآخريهم" هي أن ثمة شيئاً (جوهرانياً) هو "نحن" وشيئاً هو "هم"، وكل منهما مستقر تماماً، جلي مبين لذاته وشاهد على ذاته بشكل حصين منيع.. أيا يكن من ابتكر هذا النوع من فكر (الهوية)، فإنه مع حلول القرن التاسع عشر، كان قد أصبح العلامة المائزة للثقافات الإمبريالية إضافة إلى تلك الثقافات التي كانت تسعى إلى مقاومة التطاولات العدوانية الأوروبية عليها.. نحن لا نزال ورثة ذلك الأسلوب الذي يتحدد المرء، تبعاً له، بالأمة: الأمة التي تستقي، بدورها، سلطتها من تراث يفترض أنه مستمر من دون انقطاع.. بيد أن الانشغال العقائدي بالهوية متشابك متعالق –بصورة يتفهمها المرء تماماً– بمصالح، وبرامج أهداف لفئات عديدة– ليست كلها أقليات مضطهدة– تود أن ترتب أولياتها بما يعكس هذه المصالح.

ومنظومتي هنا هي.. أن جميع الثقافات، جزئياً بسبب تجربة الإمبراطورية، منشبكة إحداها في الأخريات، ليست بينها ثقافة منفردة ونقية محض. بل كلها مولدة مهجنة متخالطة.. وإن هذا ليصدق على الولايات المتحدة المعاصرة بقدر ما يصدق على الوطن العربي الحديث، حيث قيل الكثير، على التوالي في كل حالة عن أخطار "اللا أميركانية" إن القومية الاستدفاعية، القائمة على رد الفعل، بل الارتيابية (المصابة بخبل الريبة) كثيراً ما تحاك، للأسف، في صلب نسيج التعليم والتربية). وتتعلم الأجيال تقديس تراثها – بطريقة بغيضة – على حساب تراثات الآخرين، على حد تعبيره!

ولنلاحظ هنا أن ثمة توحيداً بين مفهوم الهوية: لدى المستعمرين والمستعمَرين/الـ "نحن" ضد الـ "هم" /فتحق الإدانة! وهذا الأسلوب لم يزل سائداً حيث الفرد يتحدد "بالأمة" صاحبة الهوية المدانة، فهي إذاً بدورها مدانة لأنها تعبر عن "مصالح فئات ليست دائماً مضطهدة"! ومع الأمة يدان تراثها بما أنه كما يُفترض (مستمر دون انقطاع). والثقافة الأميركية متوازية متساوية مع ثقافة (الوطن العربي). فخطر اللا أميركانية يشبه تماماً (ما يقال!!) عن تحديات موجهة ضد العروبة!.. إلى آخره، فكأنما ينسى إدوار سعيد أن الثقافة الأميركية إمبريالية– لأن أميركا الآن هي قائدة الإمبراطورية وموجهة تجربتها بالقوّة!– وأن الثقافة العربية معتدى عليها بالشرقنة التي سبق له أن شرح نهجها الجديد في أميركا في (الاستشراق).

لكن يبدو أن "منظومته" عن الهجنة، وما يتخيله من تعال ثقافوي إنسانوي سنرى صيغته، كل ذلك يقسره قسراً على تجاهل أساسيات، هو نفسه يعتبر أهم كاشف ومحلل لها.

-٣-

من الطريف أن "كيث وايتلام" صاحب كتاب (اختلاق إسرائيل القديمة/ إسكات التاريخ الفلسطيني) الذي صدر مترجماً في سلسلة (عالم المعرفة) الكويتية في شهر أيلول الماضي، يذهب إلى أنه لا بد من استعادة التاريخ الذي يرجع إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام في فلسطين من أجل إسقاط الإدعاءات الصهيونية في أحقيتهم بها. وهو في مقدمته يستشهد بإدوار سعيد حول صدقية ما يذهب إليه، الأمر الذي يدل على أهمية صناعة التسلسل غير المنقطع للتراث وللتاريخ في مواجهة الإمبريالية ومشتقاتها. وهذا هو بالضبط ما تنقله المترجمة في مقدمتها للكتاب المذكور عن إدوار سعيد نفسه، إذ يلاحظ (أن من الملامح المميزة لأي شعب صغير غير أوروبي الافتقار إلى الوثائق والتواريخ والسير الذاتية والتسلسل الزمني للوقائع، وما إلى ذلك) ثم تذكر ملاحظة "وايتلام" على إدوار سعيد أنه (عندما يتحدث عن استرجاع التاريخ للفلسطينيين، فإنه لا يزال كما يبدو يفكر بلغة التاريخ الحديث وليس التاريخ القديم)، ثم يؤكد أن التاريخ القديم (يحتاج إلى غربلته وتنقيته وإعطائه صوتاً معبراً بعد أن حجبته عن الأنظار ثقافة صاغت رواية مؤثرة تحتفظ بالماضي لإسرائيل وحدها) ثم تذكر أن سعيد وافق وايتلام على وجهه نظره هذه واعتبر أن أفضل كتاب قرأه العام ١٩٩٦ هو كتاب (اختلاق إسرائيل القديمة).

ويبدو أن إدوار سعيد قد فكر بالهوية (المبدأ الساكن الثابت على صيغة الـ (نحن) في مواجهة الـ "هم" وبالأمة وبالقومية، بلغة التاريخ الحديث التي هي "لغة" إمبريالية حين أدانها تلك الإدانة المثيرة للاستغراب.

ولكن هل يحق لنا نحن أن نتطاول على مفكر فذ كإدوار سعيد لنشرح له أن الهوية محصلة التجربة التاريخية الحضارية لأمة من الأمم وهي تحاول البقاء بنجوع في العالم والطبيعة والكون من جهة، وتحدد معنى وجودها في هذه الدوائر الثلاث من جهة أخرى، وأنها بذلك تستبني جهازاً مفاهيمياً عاماً لبنائها الثقافي العام الذي يعكس فلسفتها بخصوص معنى وجودها المذكور، فتاريخها إذاً يحدد مستوى بقائها وقيمته وكيفياته مثلما يحدد لها نظام قيم مبدئي/ حركي في الوقت ذاته، وضوابط سلوك ذاتي وموضوعي، وأنساق تذوق جمالية.. إلى آخره؟!

هل يحق لنا نحن أن نشرح لمثل إدوار سعيد أن ذلك كله لا يحمل الخصوصية وحدها، بل هو يحمل هذه الخصوصية على ما هو (مشترك إنساني) حيث يتم تمثل منجزات الآخرين الثقافية والتفاعل معهم ارتقائياً: ليس بصيغة (الإلصاق المعرفي) القسري الذي تجريه وسائل قوة الإمبريالية في أطر السوق المتطلبة لأقصى حدود الاستهلاك الابتذالي وتقيمه كقشرة مقحمة على مختلف الثقافات غير الامبريالية؟! أم إن إدوار سعيد يرى تلك القشرة الملصقة عبر الاستهلاك القسري قد صارت جزءاً من الأسس البنيوية للثقافات المغلوبة والأمم المغلوبة.؟! ثم هل يحق لنا أن نذكره بأن كل مجتمع أو أمة تعرضت (للشرقنة) لا يمكنها تفكيك الاستعمار ومناهضة الإمبريالية ما لم تلغِ (الشرقنة)، أي تعيد ترميم (ذاتها)، وتعيد إنتاج خصوصيتها نديا- أي هويتها- كي تتفاعل بحرية مع مستجدات العالم للتحليق نحو الأفق الثقافي الإنساني – لا الثقافوي الإنسانوي- الذي يتخيله مفكرنا الكبير.؟!

إن ما قاله وايتلام، ووافقه عليه إدوار سعيد بعد ثلاث سنوات من صدور (الثقافة والإمبريالية) في نصها الإنكليزي لهو

نوع من (الدرس المميز) الذي يحيلنا على الفور إلى تهافت ما سماه سعيد (منظومته) بخصوص الهجنة الثقافية، وما أنتجها من إدانات للهوية، والأمة، والتراث، والتاريخ، والقومية، لدى الشعوب التي كانت مستعمرة وما زالت تحت وطأت الهيمنة.. وما سيرتبه هو على تلك المنظومة من حلم ثقافوي لا يخلو من غرابة!

-٤-

يلخص كمال أبو ديب مترجم الثقافة والإمبريالية تلك الإدانات وذلك الحلم في أول الفقرة العاشرة من تقديمه للترجمة قائلاً:

(نقيضاً لهذه الهويات العزلوية المتشبثة بتاريخ متخيل، وذات متوهمة، وسرديات مختلقة يؤسس سعيد روح الهيام بالإنسان، والتهيام، والترحال، والانسراب إلى العالم من دون قيود أو حدود، روح الانخلاع من نقطة ثابتة، وانتماء واحد متحجر، وتاريخ متناسق عضوي يتصور له الكمال. ويرحل في تناقضات العالم ولا تجانسية الثقافات والمجتمعات، ويتلمس تبرعم الطاقات والقوى الجديدة التي تعد بثقافات مغايرة، وروح أعظم ثراء في نزوعها الإنساني).

إدانات واضحة.. وحلم يقفز على عالم (لم يسلم من شر الإمبريالية فيه شيء) كما يقول سعيد نفسه- إلى نوع من يوتوبيا طريفة جميلة ظريفة فلنتأمل من أين يستلهم هذا الحلم!

يقول إدوار سعيد بعد عرض سريع لا يخلو أيضاً من ظرافة فكهة (لقوى الهجنة) العالمية الواعدة باليوتوبيا: (إنني لأجد نفسي أعود مرة بعد مرة إلى مقطع شابح الجمال لـ "هوغراف سان

فكتور" وهو راهب ساكسوني عاش في القرن الثاني عشر: "إنه لمصدر فضيلة عظيمة للعقل المجرب أن يتعلم شيئاً فشيئاً، أولاً أن يتغير في الأمور المرئية والزائلة، كي يكون قادراً بعد ذلك على أن يخلفها وراءه تماماً. إن المرء الذي يجد وطنه حلواً لا يزال مبتدئاً غضاً، أما من يكون له كل ثرى بلده الأصلاني فلقد اشتد عوده، لكن الكامل هو الذي يكون العالم كله بالنسبة له مكاناً أجنبياً. إن الروح اليافع قد ركز حبه على بقعة واحدة من العالم، والشخص القوي قد نشر حبه على الأمكنة كلها، أما الرجل الكامل فقد أطفأ شعلة حبه".)

وبالطبع هذا راهب يحاول سلوك طريق التصوف للولوج إلى "ملكوت السموات"! ومتى؟! في القرن الثاني عشر الميلادي!!

لكن إدوار سعيد قد يكون متصوفاً للحظة وخارج زمنه للمحة، ولذلك فهو ما إن يخلص من (إعلان حلمه) هذا بالانخلاع من أية جغرافيا حتى يعود بسرعة إلى تحليلاته التي نعرفها، فكأن الأمر كله (فشة خلق) من فساد الأمكنة!

-٥-

من أين جاء هذا كله إلى فكر إدوار سعيد الثاقب؟!

لا شك في أن التركيب ذا الهجانة البالغة لما يمكن أن نسميه تجاوزاً (المجتمع الأميركي)، والصراعات فيه على قضية الهوية، هما ما صنعا هذه الخلخلة الطارئة في نظم أفكاره الرفيعة وتحليلاته المدهشة بعمقها وتيقظها وبراعة الاستنتاج منها. ولقد قال هو في ذلك بوضوح.

(لقد أفرز الانشغال بالهوية الثقافية، في الولايات المتحدة

النزاع حول الكتب والثقافات والسلطات التي تشكل تراث "نا" إن محاولة قول إن هذا الكتاب أو ذاك هو جزء من تراث "نا"- أو إنه ليس كذلك – هي، بصورة عامة، إحدى أكثر ما يمكن تصوره من ممارسات إنضباباً للحيوية.. قبل أن يكون بوسعنا أن نتفق على ما تتألف منه الهوية الأميركية ينبغي أن نسلم بأن الهوية الأميركية، من حيث هي مجتمع من الهجرات الاستيطانية المروكبة على خرائب حضور أصلاني كبير القدر هي هوية متنوعة إلى درجة يستحيل معها أن تكون شيئاً موحداً واحدياً متجانساً. وبالفعل فإن المعركة (القائمة) داخلها تدور بين دعاة الهوية الواحدية وبين أولئك الذين يرون الكل كلاً متشابكاً معقداً لكنه ليس موحداً وتقليصياً).

وإدوار سعيد يختار –كمهاجر وأميركي – النهج الثاني. وها هو ذا يعممه تأملياً في لحظة مفارقة لمنهجه التحليلي المدقق المألوف! لقد وقع هو نفسه في ما كان قد أخذه على ماركس في (الاستشراق) حين تحدث عن آلام الهند المستعمرة ثم قال إن ذلك سيقودها إلى وضع تاريخي متقدم، فرأى إدوار سعيد أن ماركس نفسه لم يستطع الخروج كلياً من مناخ المركزية الأوروبية. وها هو ذا يعمم الهجنة الثقافية الأميركية على ثقافات العالم، مع محاولة التجاوز كمنفي على طريقة الألماني أريك أويرباخ، من دون أن تمكنه عبقريته التحليلية من الخروج –مثل ماركس– من مناخ التمركز الأميركي اليوم، في قضية الهوية.

❑❑